الفصلُ الثّاني
عهدُ السّلطان عبد الحميد

السّلطان عبد الحميد الثاني هو السّلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، تولّى عرش الدولة وهو في الرابعة والثلاثين من عمره. إذ ولد في ١٦ شعبان عام ١٢٥٨هـ (١٨٤٣م).

ماتت أمّ عبد الحميد وهو في العاشرة من عمره، فاعتنت به الزوجة الثانية لأبيه، وكانت عقيماً. فأحسنت تربية الطفل اليتيم عبد الحميد، وحاولت أنْ تنسيه حنان الأمّ ببذل حنانها إليه كما أوصت بميراثها له. وقد تأثر عبد الحميد بها، وأعجب بوقارها وتدوينها وصوتها الخفيض الهادئ. وكان لهذا انعكاسُه على شخصيته طوالَ عمره.

تلقّى عبد الحميد تعليماً منتظماً في القصر السلطاني، بالإضافة إلى أن معلّميه في القصر كانوا من أبرز رجالات عصره علماً وخلقًا. وقد تعلّم من اللغات العربية والفارسية، ودرس التاريخ. وله بعض أشعار باللغة التركية العثمانية.

كان له اهتمامُه بالسلاح، وكان يجيد استخدام السيف، وإصابة الهدف بالطبنجة (المسدس). ويثابر على الرياضة البدنية، واحتفظ بمجموعته من الأسلحة التاريخية. وبجانب هذا كان له اهتمام منتظم بمعرفة أخبار السياسة العالمية، ومكانة بلاده فيها.

كما كان له أتباع يكلّفهم بجمع الصحف والمجلات الأوروبية لقراءتها، ثمّ ترجمتها له: يحبّ قراءة الروايات، ولم يكن له من الزوجات إلّا واحدة، وكان عفيفًا. والمراة عنده كانت (لازمة له حسب المقاييس الإسلامية البحتة، لا أكثرَ بمثقال ولا أنقص بمثقال).

والبساطة صفةُ عبد الحميد في تصرفاته وفي عاداته. وعلى سبيل المثال أنه استخدم لنومه سريرًا حديديًّا أبيضَ اللّون أشبه بأسرّة المستشفيات اليوم، ولم يغيره منذ شبابه وحتى وفاته.

وكان يحبّ اقتناء الحيوانات والطيور والفراشات. والمشهورُ عنه أنه كان يجيد فن النجارة، ويستهويه حفر الخشب. وكانت له ورشةُ نجارة خاصة به يصنع فيها في أوقات فراغه أدواتٍ خشبيةً ويهديها للمقرّبين إليه ولأقاربه[1].

وعندما قام السّلطان عبد العزيز على رأس وفدٍ عثماني بزيارة أوروبا، كان عبد الحميد ضمنَ هذا الوفد. وفي أثناء هذه الرحلة، حرص الوفد العثماني على الظهور بالمظهر المتفرنج. إلّا أن عبد الحميد (وكان أميرًا) كـان استثناءً متميزًا في ذلك الأمـر؛ فـقد كان يرتدي ملابس بسيطة

(١) تحدّث كلّ من نجيب فاضل، وهو أديبٌ وشاعر ومفكر إسلامي تركي، في كتابه السّلطان العظيم عبد الحميد الثاني (الطبعة الرابعة، استانبول ١٩٨١) ومصطفى مفتي أوغلو في كتابه عبد الحميد من كلّ زواياه، وكذلك أنور ضيا قارال في كتابه السابق الذكر؛ عن صفات السّلطان عبد الحميد الشكلية والمعنوية، انظر على سبيل المثال هنا، مصطفى مفتي أوغلو، السّلطان عبد الحميد، المرجع السابق ص ٩ – ٢٣، استانبول ١٩٨٥.

غاية البساطة. واتّسم سلوكه في أوروبا أثناء هذه الرحلة بالبساطة المهيبة. وبذلك «شدّ انتباه الأوروبيين بوقاره وهيْبته».

ولمّا كان- الأمير- عبد الحميد قد استعدّ للرحلة الملكية إلى أوروبا بمطالعات واسعة، فإنه كان دقيقًا في رؤيته، وفي حكمه على الأشياء التي رآها في الغرب، وعلى الأمور التي اطّلع عليها هناك. ولقد كُلّف في فرنسا بعض الضباط الفرنسيّين الشبان بمصاحبة الأميرين العثمانيّين مراد وعبد الحميد. وتسابق هؤلاء الضباط على سوق الأميرين الشابّين إلى أماكن اللّهو والعربدة وحياة اللّيل في باريس. ورفض عبد الحميد هذا تمامًا، ولم يمدّ يدَه إلى قدح خمرٍ قط.

والتقى الوفدُ العثماني في هذه الرحلة بمشاهير العصر سياسيًّا: نابليون الثالث في فرنسا، والملكة فيكتوريا في إنكلترا، وليوبولد الثاني في لبجيكا، وغليوم الأول في ألمانيا، وفرانسوا جوزيف في النمسا.

ولمّا توفي السّلطان عبد العزيز، حلّ محله في العرش العثماني الأمير مراد، باسْم السّلطان مراد الخامس. وبالتالي أصبح عبد الحميد وليًا للعهد.

ولم تمضِ ثلاثة أشهر على سلطنة مراد حتى وضحت عليه علامات الاَضطرابِ العصبي عقب تولّيه العرش بنحو أسبوع. ثمّ ازدادت هذه الحالةَ عليه شيئًا فشيئًا. ولما اتّضح تسعر بُرئه، حكم الأطباء المختصون بجنونه، وعدم لياقته للاستمرار في الحكم؛

فاجتمع الوزراء في ١٠ شعبان ١٢٩٣ هـ= ٣١ أغسطس ١٨٧٦م) وقرّروا: وجوب المبايعة للسلطان عبد الحميد. وفي اليوم التالي اجتمع الوزراء ثانية، واستدعوا شيخ الإسلام وأهل الحلّ والعقد، وصدرت الفتوى الشرعية بوجوب عزل مراد.

وفي ١٨ شعبان هـ= ٧ سبتمبر ١٨٧٦م) تقلّد السّلطان عبد الحميد الثاني الحكم.

***

١ - التَّركة التي آلت إلى السّلطان عبد الحميد:

«استوى عبد الحميد الثاني على العرش، إبّان ما كانت الأزمات تحيق بالسلطنة من كلّ جانب: خزانة مفلسة، وجندٌ عزل، وعناصرُ تدغدغ أنفسها أحلام القومية الجميلة، وشعبٌ توّاق للحكم البرلماني. وإلى جانب ذلك مؤامراتٌ دولية في سبيل تحقيق الأماني القومية لبعض العناصر العثمانية. هذا بالإضافة إلى مؤامراتٍ سياسية للاتفاق على اقتسام إرث الرجل المريض (أي الدولة العثمانية إبّان ضعفها).

وماذا عليه- أي عبد الحميد- أن يفعل بعد أنْ أعلن الدستور على أملِ إرضاء الشعب التوّاق لحكم الشورى، وقصد وزراؤه إرضاء أوروبا التي لا تبرح تطالب بالإصلاحات؟.

وماذا عليه أن يفعل، وإعلان الدستور لم يجعل أوروبا تقنع به، وتعدل عن الاستمرار في التدخل بشئون الدولة الخاصة، كما أنه لم يمنع روسيا الطامحة عن إشهار الحرب عليه، وعن مفاوضة سائر الدول لاقتسام أمصاره!؟

وبعد، فأين القوة ليستعين بها على قمع الثورات العنصرية، وعلى مجابهة التهديدات الأوروبية؟.

وأين قوة السّلطان بعد أنِ امتلأ القصر بعناصر تكره للدولة الاستمرارَ مثل النصارى واليهود المستَترين بأسماء إسلامية!؟ وأين أصالة الباب العالي مقرّ الصدر الأعظم والوزراء بعد أنِ استشرى فيهم حبّ الغرب والعملُ على إرضائه على حساب بلادهم؟»[1].

***

«جلس أكبر عشرين طبيبًا في الدبلوماسية الأوروبية في مؤتمر برلين حول المائدة الخضراء، وتباحثوا ثلاثين يومًا في وضع الدولة العثمانية، المسمّاة بالرجل المريض.

(١) عن التركة الثقيلة التي آلت إلى السّلطان عبد الحميد، انظر محمد جميل بيهم، العرب والترك في صراع بين الشرق والغرب، ص ١٣٠.

قرّر الأطباء في نهاية مباحثاتهم.. «بتر الساق اليمنى من جسم المريض». وكان هذا بادئ ذي بدء، وأعقبوا ذلك ببتر ساقه الشمال. ثمّ يده الشمال.

وعندما نجحت هذه العمليات، قال الأطباء للمريض: قمْ وانهض. لقد زال عنك الآنَ مرضك. تجوّل أمامنا قليلًا حتى نرى تأثير النتيجة!

وأصرّ المرض على عدم الحركة؛ لأنّ وضعه الجديد لا يسمح بذلك، بعد هذه العمليات الاستئصالية. فقالوا له: «إذًا، لا حلّ إلّا في توزيع الأعضاء الباقية منك على متاحف أوروبا التشريحية والقيام بتجارب فيزيولوجية عليها»[1].

***

الفقرتان السابقتان تشيران بدرجةٍ كافية إلى التركة التي آلت إلى السّلطان عبد الحميد، عندما تولّى عرش السلطنة العثمانية. الفقرة الأولى للكاتب العربي المعاصر محمد جميل بيهم. والفقرة الثانية لسفير ألمانيا في استانبول إم. دو. بلوويتش، وكان معاصرًا لأحداث الفترة.

***

(١) قارال، جـ٨ ص ٨٠.

٢- المشكلاتُ التي أوجدها دعاة الإصلاح الغربي:

اعتلى السّلطان عبد الحميد عرشَ الدولة العثمانية في قصر طوب قابو، في استانبول، في ٣١ أغسطس ١٨٧٦ م. وبالتالي استقال الصدرُ الأعظم، رشدي باشا، ليحلّ محلّه مدحت باشا. وكان للأخير تجربة سابقة في رئاسة الوزراء في عهد السّلطان عبد العزيز.

في عام اعتلاء عبد الحميد العرش، كانت بعض تمرّدات في الجانب الأوروبي من الدولة مستمرّة، وهي تمرّدات الجبل الأسود والصرب والبوسنة والهرسك، وكلها الآن تدخل في إطار دولة يوغوسلافيا الاتحادية. ولم تكنْ هذه الثورات نابعة من شعوب هذه المنطقة بالدرجة الأولى. وإنما كانت بتحريضٍ من روسيا، ويدير هذه الثورات ضبّاطُ روس. ولمّا زادت هذه التمرّدات وأحدثت تأثيراتها عالميًّا؛ تقرّر عقد اجتماع دولي تشترك فيه كلّ من: إنكلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا- المجر في استانبول يوم ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦؛ من أجل بحث الإصلاحات الواجب قيامُ الدولة العثمانية بها في أراضيها في البلقان. وهذا الاجتماع يسمّى في المصادر العثمانية باسم مؤتمر الترسانة.

فوجئ هذا المؤتمر في أول اجتماع له، بإعلان الدولة العثمانية قيام الحكم الدستوري، وعَرفَ المؤتمرون هذا من انطلاق مدافع الابتهاج بهذه المناسبة.

• **مشكلة الزّجّ بالدولة إلى الحرب مع روسيا:**

اجتمع اللّورد سالسبري رئيس الوفد الإنكليزي في هذا المؤتمر بالسلطان عبد الحميد، وطلب إليه أن يعوّض روسيا بتعويضات شكلية حتى يأمن غدرها، وبذلك تستريح الدول الغربية أيضًا عندما تمتنع روسيا من التدخّل في شئون الدولة العثمانية.

وكان السّلطان عبد الحميد ميّالًا للسلم بحكم وضع الدولة، وعدم قدرتها على الحرب. كما كان قيصر روسيا ألكسندر الثاني غيرَ ميّال للحرب. لكنْ المحيطون به كانوا من دُعاتها. ولكي يسكتهم القيصر، طالب العثمانيّين ببعض تعويضات لإقناع أنصار الحرب بالسكوت، وأبلغ القيصر الدولَ الغربية بذلك. وعلى الجانب العثماني كان مدحت باشا الصدر الأعظم ووزراؤه ميّالين للحرب، دعاةً لها.

انتهى مؤتمر الترسانة في استانبول بإقرار انسحاب القوات العثمانية من الصرب والجبل الأسود، وبمنح الحكم الذاتي لبلغاريا وللبوسنة-الهرسك. لكنّ الصدر الأعظم مدحت باشا، أصرّ على الحرب، رغم عدم وجود إمكاناتها لدى الدولة؛ فاجتمعت الدول الأوروبية مرة أخرى في لندن في ٢١ مارس ١٨٧٧م، وقررت تخفيف مقرّرات مؤتمر استانبول، أي مؤتمر الترسانة قليلًا، وإبلاغ الدولة العثمانية بذلك.

رفضَ مدحت باشا، ولكي يُجبر السّلطان على الحرب، حرّض مدحت باشا طلبةَ العلوم الشرعية على القيام بمظاهرات في الشوارع تنادي بضرورة دخول الدولة الحرب. وأخيرًا قام القيصر الروسي ألكسندر الثاني بالتصريح بأنه يمكن أن يمنع قيامَ الحرب بين روسيا وبين الدولة العثمانية؛ إذا تركت الدولة العثمانية قصبة نكشيك للجبل الأسود. ولّما رفض مدحت باشا هذا الاقتراح الأخير، أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية.

سُمَّيت هذه الحرب بالحرب العثمانية الروسية ١٨٧٧- ١٨٧٨م. وباسْم آخر هو حرب ٩٣. وهي السنة الروميّة لقيام الحرب. وكانت نتيجةً هذه الحرب على الجبهة البلقانية (جبهة الدانوب) اكتساحَ الجيوش الروسية للأراضي التابعة للدولة العثمانية، بدءًا بصوفيا ثمّ قيزانلق وفلبه وأدرنه. ووصلت الجيوش الروسية إلى ضاحية العاصمة العثمانية استانبول. واسْم هذه الضاحية «أياستفانوس»، هذا غير الانتصارات الروسية على الجيوش العثمانية، واستيلاء الروس على مدنٍ هامّة في الجانب الشرقي من الأناضول، وغيْر الأعمال الوحشيّة التي قام بها الروس والبلغار في البلقان أثناء هذه الحرب ضدّ المسلمين العثمانيين، ممّا أدى: إلى قتل الآلاف منهم، وهجرة الآلاف إلى الأناضول، وغيره، وتركوا هذه الأراضي التي عاشوا فيها أكثر من خمسة قرون.

وأجبرت الدولة العثمانية على توقيع معاهدة أياستفانوس في ٣ مارس ١٨٧٨م، بين العثمانيّين والروس، واحتوت على شروط سيئة للغاية للدولة العثمانية. وتقرّر هذه المعاهدات «إنشاء مملكة بلغارية تقتطع من الدولة العثمانية» تمتدّ من البحر الأسود إلى ألبانيا، محتوية منطقة قِرْقلَرْ إيلي، وحصول الصرب والجبل الأسود على الاستقلال- كدولتين- استقلالًا كاملًا، وحصول رومانيا على استقلالها، وتسليم مدن قارص وأردخان وباطوم للروس، كما تدفع الدولة العثمانية إلى جانب هذا مبلغًا هائلًا تعويضاتٍ الحرب، وهو مبلغ مليار و٤٠٠ مليون روبل[1].

عقب هذه الطامّة الكبرى التي أصابت الدولة في مقتل، اتجه السّلطان عبد الحميد إلى تقليل دور وزرائه الذين دفعوا الدولة دفعًا إلى هذه النكبة. كما اتّجه إلى تولي كل المسئوليات الرئيسية بمعنى: أنه اتجه إلى الحكم الفردي، والإشراف على كلّ كبيرة وصغيرة في الدولة.

أعلن السّلطان عبد الحميد في ١٣ فبراير عام ١٨٧٨م تعطيل المجلس البرلماني العثماني (مجلس المبعوثين) إلى أجلٍ غير مسمّى، وتولّيه شخصيًا إدارة البلاد، وتعليق الدستور.

---

(١) يشكل كتاب محمد اجيق كوز اوغلو، كتابًا مدرسيًّا مفيدًا في حسن وسرعة وبساطة عرض مشكلة الزجّ بالدولة العثمانية إلى الحرب مع روسيا وتطورات هذه الحرب، انظر هذا المؤلف في كتابه تاريخ الدول الإسلامية/ (إسلام دولتلري تاريخي) استانبول ١٩٧٥، ص ٣٦٨ – ٣٧٣. وانظر أيضًا في ذلك قارال، المرجع السابق ص ٦٦.

وقرّر السّلطان عدمَ التصديق على معاهدة أياستفانوس هذه التي تسبّب الصدرُ الأعظم ومجلس الوزراء والبرلمان فيها، واضطروا السّلطان لدخول الحرب. وقام السّلطان ببعض العمليات الدبلوماسية مع الدول الأوروبية لتخفيف بنود هذه المعاهدة. وتمكّن السّلطان من الحصول على مساعدة مِن الدول للدولة العثمانية ضدّ روسيا. وفي نظير تأييد إنكلترا الكامل للدولة في هذا الأمر؛ أجّر لها جزيرة قبرص لاستخدامها قاعدة لها. وخافت روسيا من انضمام إنكلترا للدولة العثمانية فصرفت النظرَ عن الحرب ضدّ الدولة. وبالتالي نجح السّلطان عبد الحميد في تعطيل معاهدة أياستفانوس. وعمل على عقد مؤتمر في برلين لبحث العلاقات العثمانية- الروسية، نتج عنه: توقيع معاهدة في هذا الصّدد في يوليو ١٨٧٨ خفّفت مضار المعاهدة الأولى.

وخلال ثلاثين عامًا من حكم السّلطان عبدالحميد، عقب تعطيله مجلس المبعوثان، تمكن من منع القتال بين بلاده وبين روسيا. ولما عجزت روسيا عن استثارة الدولة العثمانية للحرب، قامت بالتركيز على الحرب الباردة. وبالتالي ظهرت عدة مشاكل أخرى أمام الدولة العثمانية.

***

نتج عن الحرب العثمانية الروسية هذه، نتائج مادية ومالية واجتماعية، أرهقت كاهل الدولة وفي مقدمة هذه النتائج مشكلة المهاجرين.

شكّل المهاجرون من مناطق الحرب إلى الأناضول كثافةً سكانية أكثر من طاقة البلاد. فالأحداث في الجبل الأسود وبلاد الصرب ورومانيا أدّت إلى انفصال هذه الأماكن واستقلالها، واستولى الروس على قارص وباطوم وأردخان. واستولت النمسا على البوسنة والهرسك. فهاجر قسمٌ كبير من المسلمين في هذه الأماكن إلى أماكن الدولة الأخرى، واستقرّوا فيها.

وكان يُنظر إلى هولاء المهاجرين على أنهم أصحاب هجرة داخلية، لكنها رغم فوائدها فقد كانت تؤلف عبئًا اقتصاديًّا وماليًّا للدولة[1].

• **تمرّد النصارى في جزيرة كريت:**

كانت جزيرة كريت -وهي جزءٌ من الدولة- تغلي بالأحداث، وكان التمرد فيها قائمًا على أساس ديني قومي أشعل حماسه وساعد فيه الروس. وأثناء الحرب العثمانية- الروسية ١٨٧٧ - ١٨٧٨م، عاود الكريتيّون الأروام تمرّدهم ضدّ الدولة، وطلبوا إلحاق الجزيرة باليونان كجزءٍ من إعادة الدولة البيزنطية إلى الوجود من جديد. واستمرّت هذه الاضطرابات في الجزيرة حتى حرب البلقان عام ١٩١٢ بعد خلع السّلطان عبد الحميد، حين ضُمَّت جزيرة كريت إلى اليونان.

---

(١) انظر قارال، المرجع السابق أيضًا.

• **تمرّد الأرْمن في سبيل الانفصالِ عن الدولة:**

ظلّ الأرمن على وفاقٍ مع العثمانيين منذ الفتح العثماني للقسطنطينية، إلى أنْ أخذ الروس يحرضونهم على الثورة؛ ففعلوا. وأخذ رجال العصابات الأرمنية يهاجمون القرى التركية والكردية في منطقة شرق الأناضول، ويقتلون في أهاليها. وتدخّلت القوات العثمانية، وأعادت الأمن إلى ربوع هذه المنطقة بالشدّة والحزم. ومنذ ذلك الحين ولقبُ السّلطان الأحمر مُلصَق بالسلطان عبد الحميد كنايةً عن أمره للقوات العثمانية بإخماد التمرّد، ومنع الأرمن من قتل المسلمين. ويقول كاتب تركي معاصر: «لو لم يكن السّلطان عبد الحميد قد اتخذ هذه التدابير، لما بقي اليوم أحدٌ منَّا في ولاياتنا في شرق البلاد».

وأكبر تمرّد قام به الأرمن، حدث عام ١٨٩٥م، وقُتل منهم الكثير حتى إنّ الدول الأوروبية تدخّلت، لكن السّلطان عبد الحميد استطاعَ أن يوجد العداء بين بريطانيا وفرنسا، فابتعدت بريطانيا عن التدخل المسلح، وإنْ أخذت في تحريض المتمردين.

وفي عام ١٨٩٦م، قام الأرمن بتمردٍ في العاصمة العثمانية نفسها، لكن السّلطان احتواه بحيث لم يجرؤ الأرمن بعد ذلك على التمرّد.

ودبّر الأرمن وسيلةً لاغتيال السّلطان عبد الحميد بقنبلةٍ موقوتة إثر خروجه من أداء صلاة الجمعة، إلّا أنّ السّلطان نجا من هذه العملية (١٩٠٥ م).

• **احتلالُ فرنسا لتونس:**

كانت فرنسا تخطّط لاحتلال تونس أثناء توقيع معاهدة برلين عام ١٨٧٨م، فأرسلت عام ١٨٨١ جيشَها لاحتلال تونس، واحتجّت الدولة على ذلك بشدّة، لكنها لم تكن في ذلك الوقت في وضعٍ يسمح لها بالدفاع عن تونس.

• **احتلالُ إنكلترا لمصر:**

تسبّب إسراف الخديوي إسماعيل في إفساد الخزانة المصرية. كما كان مدينًا لإنكلترا بمبلغ مليون جنيه إنكليزي، وكان هذا رقمًا هائلًا وقتَها. وباع الخديوي إسماعيل عام ١٨٧٥م أسهمَه الخاصة في شركة قناة السويس إلى إنكلترا، ولم تكن كافية. وفي عام ١٨٧٩م عزل السّلطان عبد الحميد واليه على مصر الخديوي إسماعيل باشا، وعيّن محلّه ابنه محمد توفيق باشا. ولم يستطع محمد توفيق باشا إنقاذ مصر ممّا هي فيه. واستمرت مداخلات كلّ من إنكلترا وفرنسا. وفي ١١ يونيو ١٨٨٢م قام أهالي مدينة الإسكندرية في مصر بثورةٍ غاضبة على الأوروبيين، ونهبوا أموالهم، وقتلوا بعضهم؛ فاتخذت إنكلترا هذا ذريعةً لضرب الإسكندرية، ثمّ استولت على القاهرة ومصر كلّها، لكن إنكلترا لم تعلن تبعيّة مصر لها، وإنما قالت: إنّ مصر قطعة من الدولة العثمانية،

وكانت تؤدي ما على مصر من رمز التابعية للدولة العثمانية. واستمرّ هذا الوضع حتى عام ١٩١٤، وهو تاريخ إعلان الحماية البريطانية على مصر[١].

• **منهجُ التفكير في إدارة الدولة:**

كان عبد الحميد قد عطّل البرلمان العثماني المسمّى بمجلس «المبعوثين» إلى أجلٍ غير مسمّى. كان ذلك في عام ١٨٧٨م، بعد أن وجدَ النخبة المثقفة من الوزراء والمسئولين حوله يفكّرون بطريقة تخالف تفكيره. وفي هذا العام، أخذ السّلطان عبد الحميد يحكم البلاد حكمًا فرديًّا، واستمر في ذلك قرابة ثلاثين عامًا. وباستثناء مصر وتونس،لم تفقد الدولة أرضًا ذات قيمة كبيرة، فقد حرص هو على ذلك رغم الضعف البادي على الدولة.

لكن طلابَ المدارس التي افتتحها السّلطان عبد الحميد لتعليم أبناء الدولة العثمانية المعارفَ والعلوم، وطلاب البعثات الذين درسوا في الخارج، وتأثروا بالفكر القومي، وبالفلسفات الأوروبية؛ قاموا بدورٍ كبير في هدم الدولة. وكان السّلطان عبد الحميد هو الرمزَ الذي اجتمع فيه هؤلاء على ضرب دولتهم.

كوّن هؤلاء تنظيمًا سريًّا أطلقوا عليه اسم جمعية «الاتحاد والترقي»، تعاونوا في إطارها مع أعداء الدولة من الأوروبيّين؛ من أجل إسقاط

---

(١) عن تمرد كريت بشكلٍ عام، انظر نهاد صايار، المسائل المالية في عهد تركيا الإمبراطورية، ص ٢٢٤ – ٢٣٤) استانبول ١٩٧٧.

سلطانهم وخليفة المسلمين. ففي باريس اتّحد المناهضون للسلطان من أعضاء هذه الجمعيه -ويطلق عليهم أيضًا اسم تركيا الفتاة- مع زعماء المتمردين الأرمن ضدّ الدولة. وتمكّن أعضاء الاتحاد والترقي من بذل الدّعايات الواسعة بين صفوف الجيش، حتى صار الضباط الشبان في الجيش العثماني في البلقان، من الاتحاديين. (عام ١٩٠٨ م).

وكان على رأس هذه الجمعية في مرحلتها الأخيرة «طلعت» كاتب البريد والبرق في أدرنه، والبكباشي «أنور»، واليوزباشي «نيازي». وكان هؤلاء يؤمنون إذا استطاعوا إسقاط سلطانهم عبد الحميد عن العرش؛ فإنّ ضغط أوروبا على الدولة سيتوقف، وإنّ كل شيء سيتحسن في الدولة، وإنّ العناصر التي تعيش في الدولة ستكون أكثر ارتباطًا بها. ولذلك تعاون أعضاء الاتحاد والترقي مع ممثلي القوميات والأديان المختلفة للإطاحة بالسلطان عبد الحميد.

وبدأت حركة الاتحاد والترقي بتمرد الضابط «نيازي» على رأس وحدة من المشاة، وطالَبَ في بيان أصدره بضرورة إعادة العمل «بالديمقراطية». وعندما أُرسل القائد «شمسي باشا» لإخماد هذه الحركة؛ اغتاله الثوار في بلدة مناستر. وجاء بدلًا منه «فوزي باشا»؛ فخطفه الثوار الاتحاديون، ومِن ثمّ أطلق هؤلاء المدافع إعلانًا بعودة الدستور، وفتح مجلس «المبعوثان» وبذلك أجبر السّلطان عبد الحميد على الموافقة على ما أعلنوه (١٩٠٨م).

وبدأ الاتحاديون- من ضبّاط ومدنيين- بعد ذلك في تولي السلطة بعد هذا الحادث، الذي يُسمّى بإعلان «المشروطية الثانية» وبدأ رجال «الاتحاد والترقي» حكمًا ديكتاتوريًّا في البلاد، ووصل الأمر بهم إلى قتل معارضيهم.

ونجح الاتحاديون في الانتخابات التي أجروها في البلاد بقوة السلاح، وتمّ لهم ما أرادوا، وافتتح مجلس «المبعوثان» في ٢٣ ذي القعدة ١٣٢٦هـ/ ١٧ ديسمبر ١٩٠٨م، وكان تكوينه كالتالي: عدد أعضائه «٢٧٥» نائبًا برلمانيًّا، منهم «١٤٢» تركيًّا، و «٦٠» عربيًّا، و «٢٥» ألبانيًّا و «٢٣» يونانيًّا، و «١٢» أرمنيًّا، و «٥» يهود، و «٤» بلغار، و «شخص واحد» رومانيًّا.

وأصدر الاتحاديون عفوًا عامًّا عن آلاف المنتمين إلى العصابات البلغارية، والعصابات الأرمنية. وبدأ هؤلاء نشاطهم الثوري مِن جديد، ولكن هذه المرة ضدّ جمعية «الاتحاد والترقي»؛ وقام «الأرمن» بتمرّد كبير في منطقة أضنه، ونهبوا بيوت العثمانيّين المسلمين، وقتلوا منهم الكثير. وبالتالي تحركت جموعُ المواطنين هناك وفي طرسوس أيضًا ضدّ الأرمن، وقتلوا سبعة عشر ألف أرمني. واستمرت الاضطرابات أربعة أيام قُتل فيها مِن العثمانيين ما يقارب الألفين.

• حادثُ ٣١ مارت (يعني ١٣ أبريل عام ١٩٠٩م)

قبل تمرد الأرمن في أضنه بيوم واحد، حدثت في استانبول حادثة سُمِّيت باسْم حادثة ٣١ مارت (وتكتب أحيانًا على شطل مارط)، وتقابل في التاريخ الميلادي ٣١/ ٤/ ١٩٠٩م.

ويقول أغلب المؤرخين ورجال الحكم: إنّ هذه الحادثة تمثيلية سياسية، قامت بها جميعة «الاتحاد والترقي» وهي في الحكم لإسقاط السّلطان عبد الحميد، والتخلّص من طريقة حكمه تمامًا. وفي مقدمة مَن يقول بهذا شيخُ الإسلام «جمال الدين أفندي». وقال بهذا أيضًا- فيما بعد الحادثة- طلعت باشا زعيمُ الاتحاديّين. وهناك أيضًا مَن يقول: بأن الصهيونية- التي كانت تملك تأثيرًا قويًّا على حزب «الاتحاد والترقي»- دفعت الحزب إلى القيام بهذه الحادثة؛ عزلًا لعبد الحميد، لكي يتمكّن اليهود من إقامة دولة لهم في فلسطين.

هذه الحادثة عبارة عن قيام بعض الجنود بقتل بعض ضبّاطهم الشبان، بحجة أنهم ينافون الإسلام في تصرفاتهم، ونادى الجنود بإعادة العمل بالشرعية الإسلامية، وإبعاد ضباط «الاتحاد والترقي» عن الحكم.

اعتبر أعضاء «الاتحاد والترقي» السّلطان «عبد الحميد» المدبّر لهذه الحادثة، فأرسلوا قواتهم من سلانيك إلى استانبول، وكان هذا الجيش يحمل اسم «الحركة»، ويتكوّن من قوات نظامية وقوات غير نظامية.

كما كان يحتوي على رجال عصابات مسلّحة، من البلغار والصرب واليونانيّين. وهؤلاء يتعاونون مع «الاتحاد والترقي» المنادي بالقومية وبالمساواة.

تحرّك جيش «الحركة» من سلانيك بقيادة محمود شوكت باشا، ووزّع منشورًا يقول فيه إنه: «جاء استانبول لينقذ السّلطان من أيدي المتمرّدين» كما قال هذا القائد في برقية جوابيّة إلى الشريف حسين شريفِ مكة المكرمة: «إننا جئنا إلى استانبول لحماية السّلطان خليفة المسلمين». وكان لمحمود شوكت باشا ضابطان شابّان، هما أركان حربه: عزيز (المصري) ومصطفى كمال (أتاتورك).

• **إسقاط السّلطان عبد الحميد:**

لمّا وصل جيش «الحركة»، طلب قادة الجيش النظامي الأول الموجود في استانبول من السّلطان الإذن بالحرب، فرفض السّلطان عبد الحميد ذلك حقنًا للدماء. وفي ٢٥ إبريل أصبح «محمود شوكت باشا» هو المسيطر على العاصمة، واجتمع مجلس المبعوثين، واتخذ قرارًا بخلع السلطان. ولم يستطع «الاتحاد والترقي» الحصول على فتوى شرعية بالخلع إلّا بالجبر. وأبلغوا السّلطان القرارَ بواسطة وفدٍ يرأسه «إيمانويل قراصو» اليهودي العثماني، عضو مجلس المبعوثين، ورئيس المحفل الماسوني في سلانيك.

• **نهايةُ السّلطان عبد الحميد:**

أرسل الاتحاديون السّلطان وبعضَ أفراد أسرته وبعضَ مَن يخدمه، في نفس الليلة التي عزل فيها، إلى سلانيك. ولم يسمحوا له بأخذ شيء معه. ونهب رجالُ الاتحاديين- مع رجال العصابات المقدونية- قصرَ السّلطان عبد الحميد.

وفي سلانيك، وضعوا السّلطان عبد الحميد ومَن معه تحت الحجز والمراقبة في قصر يمتلكه أحدُ اليهود، وهو «قصر آلاتيني» المسمّى باسم صاحبه. وفيه أمضى السّلطان أيامًا قاسية عصيبة، ومنعوه من قراءة الصحف. وظلّ في هذا القصر حتى ليلة قيام الحرب البلقانية، فأتوا به إلى استانبول ليحبسوه في قصر «بَيْلَرْبَىْ»، وفيه توفي في ٢٨ ربيع الآخر (الأحد) ١٣٣٦ هـ الموافق ١٠ فبراير ١٩١٨م، عن ستٍّ وسبعين سنة إلّا قليلًا. قضى منها ثمانِ سنوات وتسعة أشهر وثلاثة عشر يومًا معزولًا. وقضى في الحكم ٣٢ سنة وسبعة أشهر و ٢٧ يومًا[1].

***

(١) عن تطور موجز بسيط لحركة الاتحاد والترقي، وموقفها من السّلطان عبد الحميد؛ انظر محمد أجيق كوزأوغلو، المرجع السابق ص ٣٧٧ – ٣٨١. إلّا أنّ قارال واوزطونه يفصّلان في ذلك تفصيلًا.